

الفصل الثالث

فى اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف

□ قد أجرنا من أجرت يامعن ! :

سعى رجل من أهل الكوفة فى إفساد دولة المنصور^(١)، فعلم به وجعل لمن دَلَّه عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حينًا مختفيًا حتى مضى^(٢) الاختفاء ، ثم ظهر فى مدينة السلام^(٣)، فبينما هو يمشى فى بعض الشوارع إذ رآه رجل من أهل الكوفة فعرفه فأخذ بمجامع ثيابه ونادى : هذا طَلَبَةُ أمير المؤمنين .

فبينما الرجل على تلك الحالة وقد اجتمع عليه الناس إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه ، فالتفت فإذا هو مَعْن^(٤) بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أنا فى جيرتك^(٥) .

فوقف وقال للرجل الذى تعلق به : ما شأنه ؟ قال : هذا بُغْيَةُ أمير المؤمنين الذى أَهْدَرَ دَمَهُ ، وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فصاح وقال : دعه ثم قال معن : أُرْدِفُهُ ، يا غلام خلفى فَأَرْدَفَهُ خلفه وساق ، فصرخ الرجل : أَيَحَالُ بينى وبين طَلَبَةِ أمير المؤمنين ؟! ، ولم يزل مغتاضًا إلى أن أتى باب أمير المؤمنين فنادى بأعلى صوته : نصيحة لأمر المؤمنين ! فأمر المنصور بحضوره ، فدخل عليه فأخبره الخبر ، فأمر بإحضار معن ، فأتاه الرسل ، فدعا بنيه وعبيده وقال : لا تسلموا هذا الرجل ومنكم أحد يعيش ، ثم سار إلى المنصور ، فدخل وسلم فلم يرد عليه السلام ، وقال : يامعن أنت أخذت منى الرجل عَدُوَّنَا ؟ قال : نعم ، قال : أفنقول نعم أيضًا؟! واشتد ، فقال

(١) المنصور العباسى هو الخليفة الثانى خلف أخاه السفاح . (٢) مضى : آله .

(٣) مدينة السلام : بغداد . (٤) طَلَبَةُ : مطلوب أمير المؤمنين وبغيته .

(٥) هو معن بن زائدة الشيبانى أمير وقائد أموى من أشهر أجياد العرب كان شجاعا فصيحا أكرمه المنصور العباسى وولاه سجستان .

(٦) أستجير بك وأحمى .

مَعْن : يا أمير المؤمنين بالأمس بعثتني إلى اليمن فقتلتُ في طاعتك في يوم واحد عشرة آلاف نفس ، ولى مثله أيام كثيرة أما رأيتموني أهلاً أن تجيروا لي رجلاً واحداً استجار بي ، ودخل منزلي !! فسكن غضب المنصور وقال له : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم بها موقع الرضا عنه فإن قلب الرجل قد انخلع من صدره خوفاً ! .

قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلة الخلفاء على قدر جنائيات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم فأجزل له العطية ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف .

قال : عجلها فإن خير البر أعجله ، فأمر له بتعجيلها ، فأحضر معن الرجل ، وقال : خذ صلة أمير المؤمنين وقبل يده وإياك ومخالفة الخلفاء في أرض الله ، قال : فأخذ الرجل المال واستغفر الله تعالى وذهب ! .

[النعمان بن المنذر واصطناع المعروف]

□ إنما تُستحسنُ الحُلة إذا كانت في يد التاجر ! :

قال أبو الفرج : حدثني عمرو بن العلاء ، قال : جلس النعمان بن المنذر^(١) وعليه حلة مُرصعة بالدر لم ير مثلاً قبل ذلك اليوم ، وأذن للعرب في الدخول عليه ، وكان فيهم « أوس بن حارثة » ، قال : فجعلت العرب تنظر إلى الحلة وكل واحد منهم يقول لصاحبه : ما رأيت مثل هذه الحلة قط ! ولا سمعتُ أن أحداً من الملوك قدّر على مثلها ، قال : وأوس بن حارثة مُطرق لا ينظر إليها ، قال له النعمان : ما أرى كل من دخل عليّ إلا استحسّن هذه الحلة ، وتحدث مع صاحبه في أمرها إلا أنت ! - مع نقصان قدرها عندي - ما رأيتك استحسنتها ولا نظرتها ! .

قال أوس : أسعد الله الملك إنما تُستحسن الحلة إذا كانت في يد التاجر ، وأما إذا كانت على الملك وأشرق فيها وجهه ، فنظري مقصور عليه لا عليها ! . فاسترجع عقله واستحسن قوله ، فلما عزموا على الانصراف قال لهم

(١) النعمان بن المنذر آخر ملوك اللخمين في الحيرة ومن أشهر ملوكها مدحه النابغة الذبياني أطلق عليه العرب أبا قابوس ، وقالوا : إنه صاحب يومى البؤس والنعيم .

النعمان . اجتمعوا إليّ في غِدِّ فَإِنِّي مُلبَسٌ هذه الحُلَّةَ لِسَيِّدِ العرب منكم .
فانصرف العربُ عنه وكلُّ يزعمُ أنه لابسُ الحُلَّةَ في غِدِّ ! .
فلما أصبحوا تَزَيَّنُوا بأفخر الملابس وتَقَلَّدُوا بأحسنِ السُّيُوفِ ، وركبوا
أجودَ الخيلِ ، ومَضَوْا إلى النعمان ، وتأخر عنه أوس بن حارثة ، فقال له
أصحابه : مَالِكَ لا تغدو مع الناس إلى مجلس الملك فلعلك تكون صاحب
الحُلَّةِ ؟ ! .

فقال أوس : إن كنتُ سَيِّدَ قومي فما أنا سيد العرب عند نفسي ، وإن
حضرتُ ولم آخذها انصرفت منقوصاً ، وإن كنتُ المطلوبَ لَهَا فسيعرف
مكاني فأمسكوا عنه .

ونظر الناسُ في وجوه القومِ ، فلم يُرَ « أوس بن حارثة » فاستدعى
النعمان بعض خاصَّته وقال : اذهب فاعْرِفْ خبرَ أوس ، فمضى رسولُ
النعمانِ ، واستخبرَ بعضُ أصحابه فأخبره بمقاتلته ، فعاد إلى النعمان فأخبره
بتلك ، فبعث النعمان إليه رسولاً وقال : احضر ولك الأمان مما خفت عليه ،
فحضر أوس بثيابه التي حضر بها بالأمس ، وكانت العرب قد استبشرت
بتأخره خوفاً من أن يكون هو الذي يأخذ الحُلَّةَ ، فلما حضر وأخذ مجلسه ،
قال له النعمان : إني لم أَرُكَ غيرَ ثيابِكَ في يومك ؛ فالبس هذه الحلة لتجمل
بها ، ثم خلعها وألبسها له ، فاشتد ذلك على العرب وحسدوه ، وقالوا : لا
حيلةَ لنا فيها إلا أن يزجره الشعراء وإلا أن يهجوهم بقبيح الفعل ، فإنه لا يخفض
فعلته إلا الشعر ، فجمعوا فيما بينهم خَمْسَمِائَةَ ناقةٍ وأتوا بها إلى رجل يقال
له : « جِرول » ، وقالوا له : تُحِذْ هذه واهج لنا أوس بن حارثة ، وكان
« جِرول » يومئذ أشعر العرب وأقواهم هجاء ، فقال لهم : يا قوم كيف أهجو
رجلاً جسيماً^(١) لا يُنكر بِلَاؤَهُ .. كَرِيماً لا ينقطع عطاؤه ، فَضُولاً^(٢) لا
يُطعن على رأيه ، شُجاعاً لا يُضام نزيله ، مُحَسِّناً لا أرى في بيتي شيئاً إلا
من فضله ، فسمع بذلك رجل يقال له : بشر بن أَى خازم وكان شاعراً ،
فرغب في البُذْنِ ، فأخذ الخمسمائة ناقة وهجاه وذكر أمه « سَعْدَى » فسمع
أوس بذلك فوجه في طلبه ، فهرب وترك الإبل ، فأَتوا بها إلى أوس بن حارثة
فأخذها ، وشَدَّ في طلبه ، وجعل « بشر بن أَى خازم » يطوف في أحياء

(١) جسيماً : عظيم الجسم بدين .

(٢) فَضُولاً : متصفاً بالفضيلة

العرب يلتمس عزيزاً يُجيره على أوس ، وكل من قصده يقول : قد أجرتك إلا من أوس بن حارثة ؛ فإني لا أقدر أن أجير عليه ، وكان أوس قد أدلى عليه ^(١) العيون ، فرآه بعض من كان يرصده فقبض عليه ، وأتى به إلى أوس ، فلما مثل بين يديه قال له : ويلك أتذكر أمي ، وليس في عصرنا مثلها ؟! ، قال : قد كان ذلك أيها الأمير ! ، فقال : والله لأقتلنك قِتْلَةً تحيا بها سُعدى - يعني أمه - ، ثم دخل أوس إلى أمه سُعدى وقال : قد أتيتك بالشاعر الذي هجأك وقد آليتُ لأقتلته قِتْلَةً تحيين بها ، قالت : يابنى أوخير من ذلك ؟ قال : وماهو ؟ قالت : إنه لم يجد ناصراً منك ولا مُجيراً عليك وإنا قوم لا نرى اصطناع المعروف خافياً ضائعاً ! فبحق عليك إلا أطلقته ، ورددت عليه إبله ، وأعطيته من مالك مثل ذلك ، ومن مالى مثله ، وأرجعه إلى أهله سالماً فإنهم أيسوا منه ! .

فخرج له أوس وقال : ماتقول إني فاعل بك ! قال : تقتلني لا محالة ! ، قال : أفستحق ذلك ؟! فقال : نعم ! ، قال : إن سُعدى التي هجوتها قد أشارت بكذا وكذا ، وأمر بحل كتافه وقال له : انصرف إلى أهلِكَ سالماً وخذ ما أمرت لك ، فرفع بشر يده إلى السماء وقال : اللهم أنت الشاهد عَلَى لا أعود إلى مثلها إلا أن يكون مدحاً في أوس بن حارثة ، وله بعد ذلك فيه قصائد كثيرة ^(٢) .

□ جابر عثرات الكرام ! :

وذكر أبو العباس بن الفرّج بإسنادٍ ذكره قال : كان في خلافة سليمان ابن عبد الملك رجل يقال له : « خزيمة بن بشر الأسدي » ، وكان مقيماً بالرقّة ^(٣) وكان له مروءة ظاهرة ، وبرّ كثير بالإخوان وكرم مشهور ، فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به دهره ، وأناخ عليه بكلّكله ، وحلّ عليه الفقر ، فواساه إخوانه قليلاً ثم ملّوه ، فلما لاح له تغيّرهم اختار لزوم بيته ،

(١) أرسل خلفه الأرصاد يرصدون تحركاته .

(٢) أشار إلى هذه القصة في اختصار ابن قتيبة في الشعر والشعراء ، وتبعدها مفصلة في مقدمة ديوان بشر .

(٣) بأرض العراق على الفرات ، والرقّة : كل أرض إلى جنب واد يابس الماء عليها أيام المد ، ثم ينحسر عنها ويتضّيب فتكون مكرمة للنبات .

وأغلق بابَه ، وانقطع عن الناس ، وكان « عكرمة الفياض » واليًا على الرِّقَّة من قِبَل « سليمان بن عبد الملك » ، فبينما هو في مجلسه وعنده جماعة من أصحابه إذ جرى ذكر « خزيمه بن بشر » ، فأعلموه أنه لزم بيته وأغلق بابَه فقال : أو ما كان لخزيمة من يكافئه على مروءته ويسد ديونَه ، وأمسك عكرمة عن الحديث ، فلما خلا المجلس قام « عِكرمة » إلى كيس وجعل فيه أربعة آلاف دينار ، ثم أتى بدابته فأُسْرِجَتْ ، وخرج سِرًّا من أهله ، فركب ومعه غلام من غلمانِه يحمل المال حتى أتى دارَ « خُزَيْمة » فأخذ الكيس ، ونزل عن الدابة من قَبْل أن يصل إلى باب « خُزَيْمة » ، وبعث الغلام إلى مكان آخر بالدابة ، وتقدم حتى وصل إلى باب « خُزَيْمة » فقرع الباب ، فخرج « خُزَيْمة » وفتح الباب فنأوله عِكرمة الكيس وهم بالانصراف فأمسك خزيمة بطرفه وقال له : من أنت ؟ قال : ماجئتكَ هذا الوقت وأريد أن يعرفني أحد ، فقال خزيمة : لا بد من معرفتك ، قال : « أنا جابر عثرات الكرام » ، وتركه وانصرف ، فأخذ خزيمة الكيس ودخل إلى منزله وهو يظنه أحد جيرانه ... ، فلما رجع عكرمة إلى المنزل وجد زَوْجَتَه على أشْر حال لأنها غارت أن يكون خرج إلى غيرها ، أو جارية اشتراها ، فقال لها : ياهذه قَرَى عينا فوالله ما خرجتُ لشيء من ذلك ، إنما أردتُ أن أفعل شيئاً لا يعلمه إلا الله تعالى ! ، فلم تزل به إلى أن أعلمها بصورة الأمر ، قال : ثم إن خزيمة بن بشر أصلح شأنه واشترى ثياباً فاخرة ومركوباً ، وتجهز إلى « سليمان بن عبد الملك » ، فلما دخل عليه قال له : ما أبطأك عنا ياخزيمة ؟ قال : سوء الحال ياأمير المؤمنين ! ، قال : فما منعك من النهوض إلينا ! قال : قلَّة ذات اليد ، قال : فما أراك إلا في أحسن صورة ، وأجمل هيئة ، قال : إن أمرى لعجيب ياأمير المؤمنين ! ، ثم قص عليه قصته من أولها إلى آخرها ، فاهتز سليمان طرباً وجعل يقول : جابر عثرات الكرام ، ويكررها ويقول : والله لو عرفته لأعنته على مروءته ! فله دره ! ما أحسن فعله ! وأوفر عقله ! ، ثم دعا سليمان بفتاه ففقد الولاية لخزيمة على الرِّقَّة والجزيرة ، وهو العمل الذى بيد عكرمة ، وأمره أن يقبض على ماله ويحتاط عليه ويحاسبه ، فخرج خزيمة يريد الرِّقَّة ، فلما قرب إليها خرج عكرمة يتلقاه ، ودخل خزيمة الرِّقَّة فدخل في دار الإمارة وأراد عكرمة الانصراف فمنعه خزيمة ووكل به من يحفظه ، وأمره بإحضار ماله

والمال الذى تحت يده ، وعمل الحساب فوجد عليه شئ كثير فبعث به إلى السجن ، فبقى ثلاثة أيام وهو لم يذكر له ما فعله معه ، ومضت زوجته وابنة عمّه إلى خزيمة وهى تقول : بئس ما جازيت به « جابر عثرات الكرام » ياخزيمة !!.

فلما سمع ذلك خزيمة دهش وقال : واسوأناه !! ، وأفضيحتاه من الله تعالى ، ومن « جابر عثرات الكرام » ، ومن أمير المؤمنين ! .

وقام من وقته وأتى إلى السجن يمشى وهجم على « عكرمة » ، ورمى بنفسه عليه ، وجعل يقبل يديه ، ويعتذر إليه ، ويُقسم بالله إنه ما عرف ، وأخرجه ، ودخل به وأخذه إلى الحمام ، وأحضر إليه ما يحتاج إليه من قماش وطيب ، واستبشر أهل المدينة غاية الاستبشار ، وأخذه وخرج من يومه راكبين إلى « سليمان بن عبد الملك » ، فلما استأذن عليه الحاجب فزع سليمان من ذلك وقال : عامل الرقة والجزيرة يُقدّم علينا من غير إذن ، فلما دخل قال : ما أقدمك علينا ياخزيمة ؟! قال : ياأمير المؤمنين ظفرتُ بجابر عثرات الكرام قال : وعرفته ؟ قال : نعم ، قال : من هو ؟ قال : عكرمة الفياض ، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، بئس ماجزينا به عن مروءته ، ثم أذن له ، فدخل فقال له سليمان : بئس ما جازيناك به عن كريم فعلك ، وعظيم مروءتك يا عكرمة ، وبئس ما فعل خزيمة ، قال عكرمة : هو معذور ياأمير المؤمنين إذ لم يعلم ! ونصيحة أمير المؤمنين أحب إليه .

فقال سليمان : إن اصطناع المعروف لا يكاد يخفى ولا يضيع ، وأمر لعكرمة بمال جزيل ، وسامحه مما كان أوجه عليه الخروج منه ، وعقد لهما الولاية على الرقة والجزيرة وأضاف إليهما من الأعمال إقليمًا كبيرًا .

□ أكرم رجل رأيته :

وحدث الحسن بن الخضر ، قال : لما آلت الخلافة إلى بنى العباس ، اختفت رجال من بنى أمية ، وكان فى جملة من اختفى « إبراهيم بن سليمان ابن عبد الملك » ، ولم يزل مخفياً إلى أن أخذ له داود أماناً من أبى العباس السفاح ، وكان إبراهيم رجلاً أديباً بليغاً حسنَ المحاضرة ، فحفظى عند أمير المؤمنين السفاح ، فقال له يوماً : لقد مكثت زماناً طويلاً مخفياً فحدثنى

بأعجب ما رأيت في اختفائك ، فإنها أيام تكدير كانت !، قال : ياأمير المؤمنين وهل تسمع بأعجب من حديثي ، لقد كنت مخفياً في منزل أنظر إلى البطحاء ، فبينما أنا على ذلك إذا أنا بأعلام سود خرجت من الكوفة تريد البصرة ، فوقع في ذهني أنها تطلبني فخرجت متكرراً ، فوالله ما أعرف أين أتوجه ولا إلى أين أذهب !! .

فاتيت الكوفة من غير طريق معروفة وأنا لا أعرف بها أحداً ، فبقيت متحيراً ، فإذا أنا بباب كبير في رحبة متسعة ، فدخلت تلك الرحبة ووقفت قريباً من الباب ، وإذا رجل حسن الهيئة وهو راكب فرساً ومعه جماعة من أصحابه وغلماؤه ، فدخل الرحبة فوجدني واقفاً مرتاباً ، فقال لي : ألك حاجة ؟ قلت : غريب خائف من القتل ، قال : ادخل ، فدخلت إلى حجرة في داره وقال : هذه لك ، ثم هياً لي ما كنت أحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام ، فأقمْتُ عنده مدة والله ياأمير المؤمنين ما سألني قط : من أنا ؟ ولا ممن أخاف ؟ وهو في أثناء ذلك يركب في كل يوم ويعود مُتعباً متأسفاً ، كأنه يطلب شيئاً لم يجده ! .

فقلت له يوماً : أراك تركب كل يوم ، وتأقني مُتعباً متأسفاً كأنك تطلب شيئاً فاتك ؟! فقال : إن « إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك » قتل أبي وقد بلغني أنه مخفٍ وأنا أطلبه لعل أجدّه ؛ فأخذ بتأري منه بسيفي هذا ، فتعجبتُ ياأمير المؤمنين من هربي وشؤم بختي الذي ساقني إلى منزل رجل يُريد قتلي ، ويطلب ثأره مني !، فكرهت - والله - الحياة ياأمير المؤمنين ، واستعجلت الموت لما أنا فيه من الشدة ، فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله ، فعرفت الخبر وهو صحيح ! .

فقلت : يا هذا قد وجب عليَّ حقك ومن حقك عليَّ أن أدلك على قاتل أبيك وأقرب لك الخطوة ! .

قال : أتعلم أين هو ؟ قلت : نعم ، قال : أين أجدّه ؟ قلت : هو أنا !؛ فخذُ بتأر أبيك ، فقال : أظنك أمضك^(١) الاختفاء وكرهت الحياة !، قلت : والله أنا قتلته يوم كذا وكذا ، فلما علم صدقي تغير لونه واضطرب ، واحمرت عيناه ، ورفع رأسه وقال : أما أبي فقد يلقاك في يوم القيامة يحاكمك عند

(١) أمضك : أملك وأوجعك .

من لا تخفى عليه خافية ، وأما أنا فغير مُخْتَفٍ^(١) ذمتى ولا مُضَيِّعٍ نزيلي ، ولكن أخرج عنى فإنى لا آمن عليك بعد اليوم ، ثم وثب يأمر المؤمنين إلى صندوق أخرج صرة فيها خمسمائة دينار فقال : خذ هذه واستعن بها على اختفائك ، فكرهت أخذها ، وخرجت من عنده وهو أكرم رجل رأيته يأمر المؤمنين ، قال : فبقى السِّفَّاحُ يهتُّرُ طرباً ويتعجب ! .

□ مكرمة مؤرخة لأحمد بن داود :

وأخبرنى على بن عيسى ، قال : حدثنى عبيد الله بن سلمان ، قال : كنت وأبو العباس أحمد بن الحصب مع خلق كثير من العمال والكتاب وأصحاب الدواوين مع محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان وزيراً للوائق بالله ، وكان ابن الزيات يطالبنا ببقايا من المال ومحاسبات ونحن فى أعظم ما يكون من المصادرات والشدة ! .

قال : فمرض الوائق بالله واشتد مرضه وحُجب ستة أيام عن الناس ، فدخل عليه أحمد بن داود يعوده وكان قاضى القضاة ، فقال له الوائق بالله ياباً عبد الله ذهبت منى الدنيا والآخرة ، وقد أيقنت بالموت فهل عندك من خير تدلنى عليه ؟ .

فقال له أحمد : يأمر المؤمنين إن وزيرك ابن الزيات غشك فى جماعة من الكتاب وأصحاب الدواوين ، وقد ملأ بهم الحبوس^(٢) ، وأنكاهم بالمصادرة ، ولم يحصل يأمر المؤمنين منهم على طائل ، وهم خلق كثير وخلفهم ألف يد ترفع إلى الله تعالى بالدعاء على أمير المؤمنين ، فيأمر أمير المؤمنين بإطلاقهم لترفع تلك الأيدي بالدعاء لأمر المؤمنين ، فلعل الله سبحانه وتعالى أن يهب لك العافية ؛ فإن أمير المؤمنين محتاج فى هذا الوقت إلى أن تقل خصومته عند الله تعالى .

فقال الوائق بالله : والله إن هذا لَنِعَمَ الرأى وَقَعَ لهم ياباً عبد الله بإطلاقهم وفك قيودهم ، قال أحمد : يأمر المؤمنين إن رأى خطى الوزير عاند وتغافل ، ولج عليهم ! ولكن يغنم أمير المؤمنين الأجر والثواب إذا تحمل المضض على نفسه ووقع لهم بخطه ، ففعل الوائق ما أشار إليه أحمد ووقع لهم بخطه وهو

(١) لن أنقض عهدى فأعذر بك . (٢) الحبوس جمع خبس وهو السجن .

يطلب إلى ابن الزيات أن يطلقهم ، وكل من في السجن بغير مراجعة ولا مراودة ، ودفع التوقيع لرجل من خاصته وسير معه جماعة من غلمانهم وأمرهم بالمضى إلى ابن الزيات ويأخذه بامتنال الأمر عاجلاً ويمنعه من الحضور إلى الوثائق بالله قبل إطلاقهم .

وتوجهوا بالتوقيع إلى ابن الزيات فوجدوه راكباً يريد دار الوثائق بالله فمنعوه وأمسكوا ببغلته فارتاع لذلك وظن أنه لحادثة قد وقعت به ، فنزل عن بغلته وجلس ، وقال : من تحدث في أمرهم مع أمير المؤمنين ؟ قالوا : أحمد قاضى القضاة ، قال : فإذا أطلقت هؤلاء من أين أجمع الأموال للأجناد ؟! انتظروا حتى أشاور أمير المؤمنين ؟ ، قالوا : لا سبيل إلى ذلك ، ثم إنهم لم يدعوه حتى أطلق الجميع .

فلما دخل علينا الحاجب السجن أيسنا من أنفسنا فقال : البشارة ! إن أمير المؤمنين أمر بإطلاقكم ، وعرفنا السبب وما فعل أحمد بن أبى داود القاضى معنا ، فخرجنا من السجن ووقفنا لأحمد فى الطريق التى يمر فيها ، فحين رأيناه دعونا له وشكرناه ، فكره ذلك منا ، وأراد أن ينزل عن فرسه فمنعناه ، وجعل يخبرنا بخبره ونحن ندعو له ، وهو يستصغر فعله ويقول : هذا بعض ما يجب من حقوقكم ، وستعلمون ما أفعله وقت عودتى إلى أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ، ثم رجع إلى الوثائق بالله عشية النهار فوجده قد خف من مرضه وأكل الخبز ، فلما زاه الوثائق بالله قال : هذا بركة رأيك ياأبا عبد الله ! .

فقال أحمد : ياأمير المؤمنين ، أما تعلم أن الأيدى التى كانت تدعو عليك صارت تدعو لك ، ويدعو لك خلق كثير من رعيتك بسبب إطلاقهم ، ولكنهم قد صاروا إلى دور خراب ، وأحوال قبيحة لا فرش فيها ولا كسوة ولا دواب ، وأمير المؤمنين رغب أن يستكمل الأجر ، ويستديم نعمة الله تعالى عليه ، فيكمل نعمته عليهم قال : بماذا ؟ قال : بالذى فى خزائنك من آثارهم ، وفى اصطبلاتك من دوابهم فإن أمرت برد ذلك عليهم ، وتفرج عن ضياعهم ليعيشوا ، وتقوى العافية ويتضاعف الدعاء ، فوقع لهم بذلك ، قال : فأخذنا جميع ما كان أخذ منا ، ومات الوثائق بالله . بعد ذلك بثلاثة أيام ، وبقيت هذه المكربة مؤرخة لأحمد بن أبى داود - رحمه الله تعالى -

□ لماذا سكت !! :

ودخل رجل على « سالم بن قتيبة الباهلي » فسأله عن حاجة ، فوضع الرجل نعل سيفه^(١) على إصبع « سالم بن قتيبة » واتكأ على سيفه ، ولم يزل يكلمه في حاجته إلى أن رض^(٢) إصبع سالم فأدماه وسالم صابر ، فلما عاين الناس ذلك منه وفرغ الرجل من كلامه ، وقضى حاجته ، وخرج من عنده ، جعل سالم يمسح الدم من أصبعه بمنديل وشده ، فقبل له : لم لا رفعت سيفه عن رجلك بيدك قال : خِفْتُ أن أفعل ذلك فيخجل مني فينسى حاجته أو شيئاً منها ! .

□ هكذا يكون شكر الله !! :

وحدث أبو موسى الفضل عن أبيه ، قال : سمعت « زينب بنت سليمان ابن علي بن عبد الله بن العباس » ، قالت : كنتُ عند « الحَيزُران » جارية المهدي وعادتها إذا كنت عندها تجلس في جهة الباب وأجلس أنا بإزائها في الصدر في مجلس كان المهدي يجلس فيه وهو يقصدنا في كل وقت ، فيجلس عندنا في بعض الأوقات ساعة ، ثم ينهض ، فبينما نحن كذلك إذ دخلت علينا جارية من جواري الحَيزُران اللاتي يحجبنا ، فقالت : - أعز الله السيدة - إن بالباب امرأة ذات حسن وجمال وخلقة حسنة ، وهي على غاية في سوء الحال تستأذن عليك ، فسألتها عن اسمها فامتنعت من ذلك ، قالت زينب : فأشارت الحَيزُران إليّ وقالت : ما تَرَيْن ؟ فقلت : ما يضر من دخولها شيء ، فلا بد من فائدة ، أو جواب ، فدخلت امرأة أجمل ما يكون من النساء وأكملهن ، فوقفت إلى جانب الباب وسلّمت وقالت : أنا « مُزَنَة بنت مروان ابن عبد الملك بن محمد الأموي » ، فقالت زينب : - وكنت متكئة - فقامت جالسة وقلت : مزنة - قاتلك الله ولا حياك ، ولا رعاك ، ولا سلّم عليك ، والحمد لله الذي أزال التّعمة عنك ، وهتك سترك ، وأهانك بين الناس ، أتذكرين يا عدوة الله حين أتاك نساء بني العباس يسألنك أن تكلمي أباك في

(١) نعل السيف : حديدة في أسفل جفنه ، والجفن : الغمد ، والغمد : غلاف السيف .

(٢) رضّ أصبع سالم أصابه بكسر ونحوه .

الإذن في دفن « إبراهيم بن محمد بن موسى »^(١) فوثبت عليهن وأسمعتين أحسن الكلام ، وأغلظ القول ، وأخرجن على الحالة التي علمتها .

قالت زينب : فلما سمعت كلامي ضحكت ، فوالله ما أنسى حُسن ثغرها ، وعلو صوتها بالقهقهة ، ثم قالت : أى بنية عمي ؛ أى شيء أعجبك من حسن صنيع الله حتى أردت أن تتساوى بي ، والله لقد فعلت بأهلك ما قد ذكرت ، ولكن كان حَقك على الله أن يسلمني ذليلةً جائعةً غريانةً شعبةً^(٢) خاضعة .

أفكان هذا شكرك لله على ما أولاك في ؟ ! .

ثم قالت : سلام عليكم وولت خارجه !! .

قالت زينب فالتفتُ إلى الخيزران فإذا هي تبكي ؛ ونادت الخيزران : يا مُرْئَنة ؛ دخلتِ بإذني ولا تخرجي إلَّا بإذني ، وصاحت بحجابها ، ردوها ، فرجعت وقالت : ما ساقني إليك إلَّا الضرر والجهد وسوء الحال .

فنهضت الخيزران فعانقتها فقالت : ما فيّ لذلك موضع للحال الذي أنا عليه ، فقالت الخيزران لجواربها : عليكم بالحمام بسرعة ، فذهبوا بها للوقت إلى الحمام ، وأمرت بعض جواربها بخدمتها ، ولم يرحوا بها حتى وافتها الخلع^(٣) المذهبة والطيب ، فقامت الخيزران واعتنقتها وأجلستها المجلس الذي يجلس فيه أمير المؤمنين المهدي ، وقدمت إليها الموائد ، فجعلت تأكل وتلقمها إلى أن اكتفت فغسلت يديها .

فقالت لها الخيزران . قومي اختارى لك مقصورة من مقاصيري فاسكني عندي ولا نفترق حتى يفرق بيننا الموت ، فقامت وطافت واختارت أوسعها وأترفها ، فحول إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش والكساوى والحريز والرقيق^(٤) ، ثم تركتها وخرجتا من عندها ، فقالت الخيزران : هذه امرأة قد مسّها من الضرّ مالا مزيد عليه ولا يغسل مافي قلبها إلَّا المال ؛ احمّلوا إليها

(١) هو إبراهيم الإمام ابن محمد لقب بالإمام أخو الخلفيتين : السفاح والمنصور ، بدأ دعوته للبيت العباسي سنة ٧٤٣ م وكان يعيش في الحميمة جنوى البحر الميت عند نشوب الثورة على الأمويين ، فقبض عليه مروان الثاقب وجاء به إلى حران حيث مات .

(٢) شعبة : متسخة الشعر والبدن

(٣) الخلع : جمع خلعة وهي الثياب .

(٤) الرقيق : العبيد .

خمسمائة ألف درهم ، فحملت إليها لوقتها ، ودخل المهدي إليها في آخر الأمر ، فقال : ما بالكم ؟ فنهضت إليه زينب وأعلمته بجميع ما جرى وما قالت لها حين دخلت عليها ، فغضب غضباً شديداً ، وقال : ما هذا سجودك لله تعالى على ما أنعم عليك ! ، والله لولا لك عليّ حرمة خلعت أُنّى ما أكلمك أبداً ، قالت : يا أُمير المؤمنين قد طاب قلبك ! ، واعتذرت إليها وفعلت معها الخيزران كذا وكذا ، فُسِّرَ بذلك وقال : احمِلوا إليها من عندي مائة ألف درهم ، وقال الخادم كان على رأسه : بَلِّغْهَا مِنِّي السَّلام وقل لها : إنني ما سررت بشيء منذ دهرى كسرورى اليوم بِمَقَامِكَ^(١) عندنا فلا تدعى في نفسك حاجة إلا ذكرتها لنا ولولا أُنّى أكره أن أَحْشِمَكَ^(٢) لسرت إليك مُسَلِّماً عليك وقاضياً بحقك ، فمضى الخادم بالرسالة ، فجاءت إلى المهدي وسلمت عليه ، وقالت : ما على أمير المؤمنين من حشمة^(٣) فإنني عُذْتُ من بعض جواريه ، فقال : لا والله بل أعزّ من ولدى ، ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت ! .

[حِلْمُ الْمَنْصُور]

□ نحن أهل بيت لا نقبلُ على اصطناع المعروف مكافأة !! :

ولما حج المنصور أمير المؤمنين عُرض عليه جوهرٌ نفيس له قيمة عظيمة للبيع فعرفه وقال : هذا كان « هشام بن عبد الملك بن مروان » فانتقل إلى ابنه « محمد بن هشام » ومابقى من بنى أمية غيرُه ، ولا بد لي منه ! .

ثم التفت إلى حاجبه الربيع وقال : إذا كان اجتماع غداً ، وصليت بالناس في المسجد الحرام ، وحصل الناس كلهم أغلق الأبواب كلها ، ووكل بها جماعة من الثقات ، وافتح باباً واحداً ، وقف عليه ولا يخرج أحد حتى تعرفه ، فإذا ظفرت بمحمد بن هشام فأنتى به ، فلما كان من الغد فعل الربيع ما أمره به المنصور ، وكان « محمد بن هشام » في المسجد فعرف أنه المطلوب وأيقن أنه مأخوذٌ مقتولٌ ، فتحير وارتاب واضطرب ، فبينما هو على تلك الحالة إذ أقبل « محمد بن زيد بن علي بن الحسين » فزاد خوفه ، وطار عقله ، وتحقق

(١) بِمَقَامِكَ : بإقامتك عندنا ومعنا .

(٢) أَحْشِمَكَ : أسبب لك انقباضاً واستحياءً وخجلاً . (٣) حشمة : حياء .

الموت ، فقال له : لا تجزع فَلَسْتُ قَاتِلَ أُنَى ، ولا جَدَى ، وليس عليك ثأر ، وأنا أجتهد في خلاصك إن شاء الله تعالى .

ولكن تعذرُني فيما أنا صانع بك من مكروه ، وقيح خطاب ، ويكون سببَ خلاصك ، فقال له : افعَلْ ماشئت ، فطرحَ رداءه على وجهه وغطى به وجهه وجذبه وسَحَبَه إلى أن قرب من « الربيع حاجب المنصور » وهو على الباب فلما وقعت عين الربيع عليهما لطمه لطماتٍ في رأسه ، وجاء به إلى الربيع وقال : يا أبا الفضل إن هذا الخبيث جَمَّالٌ من أهل الكوفة أكراني^(١) جمالاً له لبعض أهل خُراسان ولى عليه شهود ، وأريد منك من يوصله معى إلى القاضى ويمسك جِماله عن الذهاب مع الخُراسانى ، فعَيَّن الربيع عليه اثنين وقال : لا تفارقه إلى القاضى ، ومحمد بن زيد قابض على الرداء ، وقد استتر وجهه به ، فخرجوا جميعاً من المسجد ، فلما بعدوا عن الربيع قال له محمد : اذهب إلى حال سبيلك ، فقبلَ محمد بن هشام يده ورأسه ، وقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته ! ، ثم أخرج له جواهر قيمتها عظيمة . وقال : لله تعالى يابن بنت رسول الله - ﷺ - شرفنى بقبول هذا ، فقال له : اذهب بمتاعك فنحن أهل بيت لا نَقْبَلُ على اصطناع المعروف مكافأة .

واحترز على نفسك من هذا الرجل إلى أن يخرج فإنه مُجَدِّ في طلبك ! .

[حلم المأمون !]

□ إن المضطر يركب الصعب ! :

وذكرَ عن المأمون أنه قال يوماً ليحيى بن أكرم : قم بنا نخرج إلى الرِّقَّة فخرجا إلى الصخرة ، وإذا برجل قد خرج من بين القصب وفي يده قصبة يحركها في وجه المأمون ، وصاح فنفرت دابته فسقط إلى الأرض ، وقال : والله لأقتله ، فقال : يا أمير المؤمنين إن المضطر يركب الصعب من الأمر ، وهو عالم بركوبه ، ولو أَحَسَسَتْ الأيامُ مطالبتك ، ولأن تلقى الله حائثاً خيراً من أن تلقاه قاتلاً ، فقال المأمون : كيف قلت ؟ أعد علىّ .

(١) أكراني : أجر لى .

فأعاد عليه مقالته ، فالتفت إلى يحيى بن أكنم وقال : أما رأيت كيف يخاطبني ؟ المرء بأصغريه : بلسانه وقلبه ، ثم قال : هات قصتك فوالله ما أوقع فيها إلّا وأنا قائم فوقه فيها ، ثم ركب ، ثم قال : إذا لم يكن إلّا على الشرّ مركب فلا عذر للمضطّر عند ركوبها !

[يحيى بن خالد والرشيد]

□ والله لأن تزول النعمة عنى أحب إلى من أن أزيلها

عن غيرى !! :

قال : لما أحس « يحيى بن خالد » بالتغير من أمير المؤمنين الرشيد استشار صديقاً له في أمره وقال : إن أمير المؤمنين قد أحب جمع المال ، وقد كثرت أولاده ، وهو يحب أن يتخذ لهم الضياع والرباع والعقار^(١) ، وقد كثرت علينا الحسدة ! .

فقال له الرجل : أشير عليك أن تنظر إلى ما في يد البرامكة من ضياع وعقار وأموال ، فتجعل ذلك كله لأولاد الأمير ، فإن أنت فعلت ذلك ازدادت عنده منزلة وأحبك ! .

قال يحيى : والله لأن تزول النعمة عنى أحب إلّى من أن أزيلها عن غيرى ! .

[يحيى بن خالد وطالب حاجة !]

□ إن حاجتك قد قضيت ! :

قال : ومشى رجل في ركاب يحيى بن خالد وطلب منه حاجة ، فقال له : يا هذا إن حاجتك قد قضيت فارجع ! ، والله ما وقع غبارٌ موكبي على لحية رجلٍ إلّا وجب له علىّ حق لا أقدر أن أكافئه عليه ! ولو أعطيته ملء الأرض ذهباً !! .

(١) الضياع : جمع ضيعة وهى الأرض المغلة . والرباع جمع ربع وهو الموضع ينزل فيه زمن الربيع والمنزل والحي . والعقار : كل ملك ثابت له أصل كالأرض والدار .

□ إني بكلّ سخى رقيق ! :

وحدث أبو القاسم بن المعتمر عن ابن معتوق الحمصى عن أبيه قال : كنت عند الحكم بن عبد المطلب بن عبد الله بن عبد المطلب بن حنطب وهو فى المساق^(١) فقلت له : اللهم هَوِّنْ عليه فإنه كان وكان ! ، وذكرت ما كان له من اصطناع المعروف ، ففتح عينيه وقال : من المتكلم ؟ قلت : أنا ، قال : إن مَلَكَ الموت يقول لك : إني بكلّ سخى رقيق ، ثم احمر وجهه وضحك ومات ! ، فوالله كأنه سراج انطفأ .

□ مرحبا بأقرب قريب خطب ! :

وروى عن عنبسة بن أبى سفيان أنه قال : زَيْنَى أبى وأرسلنى إلى عمى عُتْبَةَ أخطب ابنته ، فأتيتها فأقعدنى فى حجره ، وقال : مرحباً بأقرب قريب خطب ، وأحبّ حبيب ورد ، لا أستطيع له رَدًّا ، ولا أجد من تَشْفِعه بُدًّا ، يابنى قد زوجتكها وأنت أعز على منها ، وهى ألصق بقلبى منك ؛ فأكرمها يعذب على لسانى ذكرك ، ولا تُهنّها فيصغر عندى قدرُك ، وقد قرّبتك مع قرابتك فلا تُباعد قلبى من صِلَتِكَ !.

[من أفضل العرب !]

□ يا فضل .. يا فضل !! :

وذكر عن الفضل بن يحيى بن خالد أنه ركب فى حَشَمِهِ بموكبه إلى الصيد حين علا النهار ، ثم أمر فَضْرِبَتْ له المضارب ، وأمر بالطعام فَقَدَّمَ بين يديه ، فبينما هو يأكل وإذا هو بأعرابى على ناقة قد أشرف ، فلما نظر إلى تلك المضارب والجيش^(٢) والجنائب والغلمان ما شك أنه هارون الرشيد ، فنزل عن ناقته وعقلها ، ثم دنا وقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ! .

(١) المساق . المصير والمرجع . والمراد : الاحتضار .

(٢) المضارب : المضرب والمضارب : الفسطاط العظيم ، والحيمة الكبيرة . الجنية : الدابة تقاد ويقال :

فلان تقاد الجنائب بين يديه إذا كان عظيماً .

فقال له الفضل : مَه^(١)، فقال : السلام عليك أيها الوزير ، فقال : مَه ، فقال : السلام عليك أيها الأمير ، فقال : قاربت فأذن له فبنا وأكل ، فلما فرغ من الأكل قال له الفضل : من أى العرب ؟ قال : من ربيعة ، فقال : أين تريد ؟ قال : إلى الفضل ، فقد شاع ذكره في العرب وكرمه ، فقصدته على الاسم والذكر بأبيات من الشعر ، فقال : ياأخا العرب قد مالحناك^(٢) ووجب نصحك علينا ، وأنا عارف بالفضل فأنشدنا فإن كان يصلح له وصلناك إليه ، وإن لم يكن أعطيناك نفقة توصلك إلى أهلِكَ وأنت على جاهك ، فأنشد هذه الأبيات :

ولو قيل للمعروف : نادِ أَخَا الْعَلَا لنادى بأعلى الصوت يا فضل يا فضل
ولو أم طفل مَضَّها جوعُ طفلها وغدَّته باسم الفضل لاستعصم^(٣) الطُّفْلُ

فقال الفضل : أحسنت إنهما لبيتان جيدان ، ولكن إذا قال لك الفضل هذان بيتان لقيتهما من شعر العرب ، وجئتنا لتخدعنا عن حاجتك ، قال : أقول له : يأمر بإحضار كتاب فيه شعر فيفتحه فأى وزن وقافية اشتى عملتُ عليها بيتين ، فقال : ياغلما ن أحضروا كتاباً فيه أشعار ، فحضر ففضه فخرجت قصيدة ابن الجهم التى يقول فيها :

• عيون المها بين الرصافة والجسر •

فقال الفضل : هذا وزن سهل وقافية سهلة ، فإن قال لك الفضل : أريد أن تعمل أربعة أبيات يكون في كل بيت منها اسم الفضل فما تصنع ؟ فتفكر قليلاً وقال :

ولائمة لآمتك يا فضل في الندى فقلت لها : وهل يقدح اللوم في البحر ؟!
أرادت لشي الفضل عن عادة الندى ومن ذا الذى يثبى السحاب عن القطر
مواقع جود الفضل في كل بلدة مواقع ماء المزن في البلد القفر
كأن وفود الفضل حين تحمّلوا إلى الفضل والى عنده ليلة القدر
فقال : أحسنت ياأخا العرب ، أنا الفضل ، فهض الأعرأى وقبل يده ،

(١) مَه : اسم فعل أمر بمعنى اسكت ، وكذلك صَه .

(٢) مالحه : وأكله ، ويقال : هو يحفظ حرمة الملح والمالحة . ومن قولهم : بينهما حرمة الملح والمالحة .

(٣) مَضَّها : آلمها . واستعصم : اعتصم وامتنع به ولجأ .

وقال له الفضل : ما الذى أَمَلْتَهُ منى ؟ فقال له : ألف درهم أستعين بها على حالى ، فقال : يا غلام ادفع له ألفاً وألفاً وألفاً ، ولم يزل يكررها حتى انقطع نَفْسُهُ ، فحصى ذلك فكان ستة عشر ألفاً وأخذها وانصرف .

فانظر يا أخى إلى هؤلاء السادة وما كانوا عليه من الشفقة على عباد الله تعالى ، وما وفقوا له من اصطناع المعروف فى زمانهم ، فأعمالهم منشورة إلى قيام الساعة ، ثم تفكر فى أهل زمانك هذا لا ترى إلا كما قال الشاعر :
قوم إذا استقرتهم فكأنما حاولت تئف الشعر من آناهم^(١)
وقول الآخر :

ذهب الذين يُعاشُ فى أكنافهم وبقيت فى خلف كخلف الأجر^(٢)

[خطبة على - كرم الله وجهه - فى اصطناع المعروف]

□ فضل الجنى :

وقد روى عن الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - أنه كان كثيراً ما إذا خطب يوم الجمعة يقول : يا أيها الناس عليكم بالمعروف واذكروا فعل الجنى ، قال ابن الأشتري لبعض أصحابه :
انطلقوا بنا إلى أمير المؤمنين حتى نسأله عن هذا « الجنى » ما هو فقد أكثر فيه القول ! .

فأتياه فدخلوا عليه ، فقال : ما راعنى^(٣) بكما فى هذه الساعة ؟ فقالا :
يا أمير المؤمنين ؛ سمعناك تقول : عليكم بالمعروف واذكروا فعل الجنى ! .
قال : ما تدرون ما هو ؟ قالوا : لا . قال : فذاك كان فيكم ، قالوا : من ؟
قال : مالك بن حريم الهمدانى^(٤) خرج حاجاً فى رهط من أصحابه حتى

(١) استقرتهم : طلبت القرى منهم والطعام وياها من صورة ساحرة تدل على مدى فزعهم من سؤالهم القرى ، وإلى أى مدى كان بخلهم بما فى أيديهم حتى اللقمة تقدم للضيف ! .

(٢) قاله ليبد .

(٣) راعه : أفرعه . (٤) قال فى القاموس : مالك بن حريم الهمدانى : جد مسروق .

إذا كان في بعض الطريق قال لهم : أسندوا^(١) فقد قدرتم على الماء ، فأسندوا فرقدوا حتى طلع القمر من آخر الليل ، فانساب إليهم شُجَاعٌ من الجبل^(٢)؛ فطاف بالقوم ، فلما انتهى إلى الشيخ جرى الفتى بالعصا وخشى أن يسبقه إلى الشيخ فيلسعه فضربه ، فأخطأه ، ففرغ ! .
فقال الشيخ : مه^(٣) ، فقال : الشجاع دخل تحتك ! .
قال : استجار لي فأجرته ! ، قال : فخرج الشجاع فرجع من حيث أتى ! .

وقال : ارقدوا فقد رقدتم على الماء ، فلما استيقظوا إلا بحرَ الشمس ، فقاموا فأخذ كل إنسان بخطام راحلته^(٤) يطلبون الماء فإذا هم على طَلَل ، فلما رأى ذلك الشجاع قال شعراً من كلام جِنِّي في صفة ثعبان أيضاً :
يَأْيِهَا الرِّكْبُ لَا مَاءَ أَمَامَكُمْ حَتَّى تَسْمُوا المَاطَا يَوْمَهَا الدُّبَا
ثُمَّ اْعْدِلُوا يَمْنَةً فَاَلْمَاءَ عَنْ كَتَبِ عَيْنِ رَوَاءِ وَمَاءٍ يُذْهَبُ اللَّغْبَا^(٥)
حَتَّى إِذَا مَا أَصْبَمَ مِنْهُ رَيْكُمُ فَاسْقُوا المَاطَا وَمِنْهُ فَاَمَلْتُوا القُرْبَا
قال : فأسندوا فإذا عين خراة ، فشربوا وأسقوا إبلهم وصدروا .
فلما رجعوا كانوا بأدنى الجبل ، قالوا : يا حريم لو استعذبنا من ذلك الماء ، فأسندوا فلم يروا شيئاً ، فلما رأى ذلك الشجاع ناداهم من الجبل يقول شعراً من كلام الجنى أيضاً :

يَا مَالِ عَتَّى جِزَاكَ اللَّهُ صَالِحَةً هَذَا وَدَاعٍ لَكُمْ مِنِّي وَتَسْلِيمٌ^(٦)
لَا تَزْهَدْنَ فِي اصْطِنَاعِ العُرْفِ مَعَ أَحَدٍ إِنْ الَّذِي يَحْرُمُ المَعْرُوفَ مَحْرُومٌ
أَنَا الشَّجَاعُ الَّذِي أُنْجِيتَ مِنْ زَهْقٍ شَكَرْتَ ذَلِكَ إِنْ الشُّكْرَ مَقْسُومٌ
مَنْ يَفْعَلُ الحَيْرَ لَا يَعْذِمُ مَقْبَتَهُ^(٧) - مَا عَاشَ - وَالْكَفْرَ بَعْدَ الْغَدْرِ مَذْمُومٌ^(٨)

(١) أسندوا : استريحوا واستندوا إلى جبل ونحوه .

(٢) مَهْ : اسم فعل أمر بمعنى كَفَّ عن هذا العمل !

(٣) الخطام (بكسر الخاء) : الزمام والمِقْوَد والراحلة : الناقة التي يرغل عليها .

(٤) اللغب : التعب والإعياء .

(٥) يامال : منادى مرخم أصله يامالك . والمراد به مالك بن حريم الهمداني .

(٦) مَقْبَتُهُ : عاقبته .

(٧) في بعض المصادر «بعد الغيب» وقد ذكر هذه القصة ابن أبي الدنيا في الحوائف وفي سندها هشام بن محمد الكلبي متروك الحديث وأورد هذه القصة الشيلي (ص/١٤٨ - ١٤٩) والسيوطي =

□ عبيد بن الأبرص وصاحب له :

قال : وخرج عبيد بن الأبرص في بعض أموره ومعه صاحب له ، فإذا هما بشجاع يتقلب في الرمضاء^(١) ، فقالوا : يا عبيد دونك الشجاع فاقتله^(٢) ، قال : هو إلى ما تسقونه من الماء أحوج ، قالوا : دونك الشجاع فاقتله ، قال : أنا أكفيكموه ، فأخذوا دلوًا من ماء فصب له ، وشرب وصب فضلته على رأسه ومضى ، فلما مضى في سفره ضل به الطريق وهرب بكره^(٣) ، فإذا هو بهاتف هتف به وهو يقول :

يا صاحب البكر المضل مذهبه وليس معه ذو رشاد يضحبه
دونك^(٤) هذا الركب متا فازكبه وبكرك الدارج أيضا فاضحه
حتى إذا الليل تولى مغربه وسطع الصبح ولاخ كوكبه
فحط عنه رخله وسيه

قال : فالتفت فإذا هو ببكر ، فشد عليه رخله وركبته ، فلما قرب الصبح عرف المكان فقال :

يا صاحب البكر قد أُنجيت من ضرر
ألا أتيت لنا بالصبح نعرفه
فارجع سلیمًا فقد بلغت مأمننا
فأجابه يقول هذه الأبيات :

أنا الشجاع الذي أبصرته بالوادي
فجذت بالماء لما صن شاربه
أنا الشجاع الذي أرويتني عطشاً
الحير يقي وإن طال الزمان به

ومن فياف تضل المدج الهادي^(٥)
من الذي جاد بالتغماء في الوادي ؟
بوركت من ذي سنام رائح غادي
ومنزلى نزه من مورد صادي
رويت هامتي ولم تبخل بانجاد
يوم الهجير على الرمضاء بالوادي
والشر أخبت ما أوعيت من زاد

= (١٣٥) نقلًا عن ابن أبي الدنيا في كتابه المواعظ (مكتبة القرآن) .

(١) الرمضاء : الرمل الملتهب بفعل حرارة الشمس ، ويقال هو كالمستجير من الرمضاء بالنار ! .

(٢) دون ظرف منصوب بمعنى أمامك وتوصل بكاف الخطاب . (٣) البكر : الفئ من الإبل .

(٤) كما تكون «دون» ظرفًا تكون اسم فعل بمعنى «أخذ» وتوصل بكاف الخطاب .

(٥) الفيافي : الصحاري . والمدج : السائر في الظلمة .